اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الثالث

وكان ديجنه قد أعد فى بيته فى الضاحية حفلة للشباب مستكملة من خمر وطعام ولعب وصيد ورقص وسباق ؛ وكان غنى هذا الصديق مجملاً بحب الضيافة والكرم ؛ وله مكتبة مجهزة بأغنى الكتب ، وكان إذا حادثك نم حديثه عن علم واسع وأدب جم

وحملت إلى هذه الحفلة كآبتى أغالبها فلا تغلب ؛ وقد احترم ديجنه حزنى إذ سكت أنا عن استفساره فلم يعاود الكرة على

وما كان يهتم ديجنه إلا لأمر واحد ، وهو أن يرانى ناسياً خليلتى ، فكان يرضيه أن أتناول الطعام كسواى ، وأرافق الأصحاب فى ألعابهم وصيدهم

إن فى العالم أناساً مثل هـذا الصديق يحاولون جهدهم أن يخدموا من يودون فلا يترددون فى أن يرشقوا وجهه بحجر إذا رأوا ذبابة تلسع خده ... فهم لا يفترون يمنعونه عن ارتكاب ما يعدونه خطأ ، ولا يطيب لهم عيش دون أن يتوصلوا إلى طبع هذا الصديق على غرارهم ، فاذا هم ظفروا بغايتهم فركوا أيديهم ونفضوا أناملهم دون أن يخطر لهم ببال أن يتساءلوا ما إذا كان صديقهم قد خرج بفضلهم من مأزق ليقع فى مأزق أشد حرجا وضيقا

تلك هى واجبات الصداقة فى نظر هذا النوع من الأصدقاء

من مصائب الشبيبة أنها تتوهم الحياة قائمة على مثال الحوادث الأولى التى طرأت عليها . وهنالك نوع من أشقياء المجتمع تراهم على أهبة ليقولوا للفتى المصدوع : إنك على حق فى اعتقادك بالشر ، ونحن نعلم حقيقته

ولقـد سمعت رجالا وخط الشيب شعورهم يتكلمون عن نوع من علاقات الرجل بالمرأة يصفونه (بالعاطفة الجوّالة) فكانوا يتحدثون عن هذه العاطفة كأنها آلة حديثة اخترعها مهندس ، فيصورون كيفية استعمالها ويذكرون ما يجب أن يقول العاشق ، وما عليه أن يجيب به مقررين قواعد رسائل الغرام وكيفية الركوع لاستعطاف المرأة المشتهاة . وهكذا كان هؤلاء الأفاضل ينظمون حركات الهجوم والدفاع

وما كانت هذه الأصول الموضوعة إلا لتجعلنى أقهقه ضحكا ، لأننى ما تمكنت يوماً أن أقول لامرأة أحتقرها إننى أحبها حتى ولو كان هـذا التعارف المعمول به مما تعرف المرأة نفسها زيفه .

ما جثوت يوماً أمام امرأة دون أن يجثو قلبى معى . لذلك ما عرفت حياتى هـــذا النوع من النساء المبتذلات ؛ وإذا ما كنت وقعت لاحداهن ، فما كان ذلك إلا دون قصد منى وعن جهل بحال المرأة التى أغوتنى

ليس من المستغرب لدى أن يهمل الانسان نفسه ، ولكن ما أستغربه هو أن يقدم على تدنيسها .

ولقد يكون فى هــذا القول شيء من الـكبرياء ، ولـكننى أربأ بذاتى أن أرفعها فوق موقعها ، أو أن أحط بها الى أدنى من مستواها . وليس أكره إلى من المرأة التى تهزأ بالحب . ولمثل هــذه المرأة أن يبادلنى عاطفتى هذه فاننى لن أنازعها هذا الحق

إن مثيلات هذه المرأة لأحط من العاهرات ؛ وقد تكذب العـاهرة كما تكذب المرأة المحتقرة للحب ؛ ولـكن الأولى قد تحب ، أما الثانية فلا تفقه للحب معنى

أذكر امرأة تعلقت بى فكانت تقول للرجل الغنى الذى تعايشه : لقد مللتك ؛ وهأنذى ذاهبة إلى حبيبى

إن مثل هــذه المرأة لخير من النساء اللواتى لا يتقاضين عن أعراضهن ثمناً

وقضيت فصل الصيف عند ديجنه حيث بلغنى أن خليلتى بارحت فرنسا . ومنذ اليوم الذى بلغنى فيه هذا الخبر اسـتولى علىّ خمول لم أجد لنفضه عنى سبيلا

وكنت فى وسط هــذا المجتمع الجديد أتطلع كالفرس الجموح الى كل ما حولى

وكان لديجنه خليلة على غاية من الجمال . وكنت أتمشى معه فى إحـدى الليالى فقلت له إننى أقدر جمال عشيقته وتعلقها به واخلاصها له ، وأشعرته أننى أغبطه على هذه النعمة . فسكت على عادته وابتسم .

وعند ما دخلت الى غرفتى لأرقد فى المساء نفسه سمعت طرقة على بابى فأذنت بالدخول ظنا منى أن أحد الصحاب أخذه الأرق فلجأ إلىّ ، وفتح الباب فرأيت امرأة تتقدم مترددة وقد امتقع لونها وتعرى نصف جسمها وبيدها طاقة أزهار قدمتها الىّ ، وبين الأزهار ورقة أخذتها فاذا عليها :

« إلى أوكتاف من ديجنه ، بشرط المعاملة بالمثل »

وما قرأت هذه الـكلمات حتى أدركت ما رمى اليه ديجنه من اهدائه الىّ خليلته كما تهدى الجوارى . . . وما كان ديجنه على ما أعرف به من الصراحة ليفعل ما فعل تضليلا أو هزؤا ، فهو لم يقدم على فعلته إلا ليلقننى درسا

إن هذه المرأة كانت تحبه ، وقد سمعنى أثنى عليها ، فأراد أن يردعنى عن التعلق بها فى حالتى قبولى لها ورفضى

فوجمت أتفرس فى هذه المرأة ودموعها تنحدر على خديها ولا تجرؤ على مسحها خشية أن انتبه إلى بكائها ؛ وما كنت لأعلم بماذا تهددها ديجنه حتى أطاعت . فقلت لها : لا بأس عليك ، أيتها الآنسة ، ارجعى من حيث أتيت

فقالت : إذا أنا خرجت من غرفتك قبل بزوغ الفجر ، فان ديجنه سيعيدنى إلى باريس ، وليس بوسعى أن أخالف أمره ، فوالدتى فقيرة

فأجبتها : إن فقرك يدفعك إلى تنفيذ أمر ديجنه إذا ما وافقت أنا عليه ، ولقد يسمو بى جمالك الرائع ، ولـكنك تبكين ، وما تذرفين دموعك من أجلى ، وأنا لا شأن لى فى غير هذه الدموع . اذهبى وأنا كافل لك أن لا يرجعك ديجنه إلى باريس

* * *

إذا كان التأمل صفة ثابتة من صفات العقل فى أكثر الناس ، فمـا هو عندى إلا كغريزة لا تتحكم إرادتى فيها ؛ فان التأمل يجتاحنى كنوب عاطفية شديدة لا قبل لى بردها ، فمنذ ما خرجت هذه المرأة من غرفتى جلست وقد اعترتنى نوبة

التأمل ، فاذا أنا أناجى نفسى قائلاً : هذا قضاء الله فيك يا هذا ... لعل ديجنـه كان على حق لاعتقاده بأنه إذا لم يرسل خليلته إليك لكنت تقع أسيراً فى هواها

أنما دققت فى حسنها وجمالها فأدركت أنها آية فى الخلق وما تجود الطبيعة بمثلها إلا نادرا ؟ ومع ذلك فان الرجـل الذى يريد أن يشفيك من دائك لم يجد وسيلة أجدى عليك من الصاق شفتيك بشفتيها ليمحو آثار الحب من قلبك

ولـكم رأى هذه الفتاة رجل قبلك فما استهدفوا للخطر الذى ترامیت أنت عليه

وهذا ديجنه تمبد جمالها ولـكنه لم يؤخذ به ، فهل يحيا هـذا الرجل بلا قلب ؟ إن لهذا الرجل قلباً ولـكنه يختلف عن قلبك شمورا ، لأنه لا يمتقد فى شىء ولا يهتم بأى أمر كان ، ولـكنه إذا أصيب بلسعة فى رجله فأنه يرتمش خوفاً . وهو المتقد بانحصار الحياة فى جسده ، فاذا ما فقده فقد الكون بأمره . أيمكن للانسان أن يحيا على هذه الوتيرة فيجلد روحه بالسياط كما يجلد المتمبدون أجسادهم !

افتكر يا هذا واعتبر أنك لترى رجلا يضم بين ذراعيه أجمل امرأة وهو مشتمل بحرارة الشباب يملن لهذه المرأة إعجابه بها وتملن هى حبها له فيجيئه يوماً صـديق يثق به ويقول له : إن هذه المرأة مبتذلة فيزول كل اعجاب وحب من قلبه ، ولو أن هذا الصديق قال له إن هذه المرأة جانية لما فمل هذا الوصف فى قلبه ما فملته كلمة « مبتذلة »

فما هى قوة هذه الـكلمة يا ترى ؟ إنها ولاريب تحمل العار ، وتنزل المقاب المـادل بالمرأة التى استحقتها ولـكنها ليست إلا كلمة ! وهل للـكلمة أن تقتل جسداً ؟

ولـكنك قد تكون عاشقا لهذا الجسد فلا تجد أمامك إلا من يقول لك : أترع الـكأس واذهب فى سبيلك ، فان للجسد الذى تحترق من أجله ثمنا معينا . ولـكن ديجنه يحب خليلته فهو لا يضن عليها بشىء ، فهل لهذا الرجل حب خاص به دون سواه ؟ لا ؛ إن هذا الرجل لا يعرف الحب ، ولافرق عنده بين امرأة تستحقه وأخرى لا تستحقه لأنه لا يحب أحدا

وما الذى أبلغ ديجنه هـذه الدركة من الشمور ؟ فهل هو خلق بهذه الماهة ، أم أصيب بها بمد ولادته ؟ إن ديجنه ليس رجـلا ما دام الحب ألزم للانسان من الماء والهواء . أهو أحد الجبابرة أم أحد الصماليك ؟ فهو يرتمى على أحضان امرأة تمشقه دون أن يشمر بأية رعشة ودون أن يتوقع أى خطر ؟ وما الحب لديه إلا سامة جسد ببدرة مال . أية وليمة هى حياته ؟ وأى شراب يتدفق فى أقداحه ؟ إن هذا الرجل لم يتجاوز الثلاثين من عمره وقد أصبح مدمناً على السم مكتسباً مناعة تهزأ بزعاف الافاعى التى يداعبها

إن فى الأمر لغزاً عميقاً يا بنى ، وعليك أن تجد له حلا . مهما اجتهد أنصار الفحشاء بالتعليل فانهم قد يثبتون ليوم من الأيام ولليلة من الليالى ولساعة من الساعات أنها ناموس طبيعى ، ولـكن إثباتهم هـذا لا يصمد لوجه الزمان لأنه ليس من شمب على الأرض لم يمتبر المرأة رفيقة الرجل وسلواه ، أو المنبت المقدس لحياته ؛ وقد استحقت التمجيد فى الصفتين

ومع هذا فانك لترى من الناس من ينتصب

كالمحارب المدجج بالسلاح ليندفع قافزاً فوق الهاوية التى فصل الله بهـا بين الانسان والحيوان . ومن يقدم على هذا العمل فانما هو ينكر النطق على نفسه فيصبح كالوحش الأعجم خانقاً المحبة المفكرة الناطقة بقبلات الجسد وشهواته اذ يضع على فمه ما على أشداق الحيوان من طابع الصمت الأبدى

إن مثل هذا المسخ يقف أمام أشرف كلمة وجب عليه أن يتعلمها فينفخ عليهـا عاصفات من دياجى الغابة السوداء حيث يأتمر شياطين الفناء بالحياة

لقد تجاوز هذا الرجـل الحد الذى أوقف الله الانسان عليه ، فهو قد تقهقر عن هذا الحد أو اندفع إلى ما وراءه . . . وقد أصبحت أحشاؤه كأحشاء المرأة العاقر أوجدتها الطبيعة ناقصة أو تسربت إليها قطرات أعشاب سامة تقضى على جرثومة الحياة

إن العمل والمطالعة قصراً عن شفائك يا بنى ؛ وقد أصبح شمارك أن تنسى وتتعلم ، وقد كنت تقلب صفحات الكتب الميتة ، وأنت لما تزل قاصراً عن دراسة الخرائب والاطلال . أنظر إلى ما حولك من قطعان البشرية وإلى عينى أبى الهول تشمان بين ما خطته اليد المستترة . طالع كتاب الحياة أيهـا الطالب وارم بنفسك فى تيار الحياة فما الحياة إلا كنهر الستيكس فى الأساطير تولى مياهه المناعة لمن يجرؤ على اقتحامه من الأبطال . أقدم فاما أن يقودك هذا التيار الى الموت أو يرفعك الى الله

الفصل الرابع

قال القديس أوغسطينوس وهو الرجل الكامل عند ذكراه أيام شبابه :

— وما كانت جميع هـذه المسرات والملذات الكاذبة إلا بذورا لا تنبت غير المرارة والأوجاع وقد استنفدت قواى حتى مللتها

إنها كلمات لا يتفوه بهـا إلا القلائل ممن مشوا فى الحياة حيث مشى هذا الرجل ؛ غير أنهم لا يشعرون بغير معناها فى قلوبهم ؛ وأنا أيضاً لا أجد سواها فى صميم فؤادى

وبعـد أن عدت إلى باريس فى أول الخريف بدأت حياة الشتاء مندفعاً الى الملاهى والمآدب والمراقص ، فما كنت أفترق عن ديجنه إلا نادراً ؛ وكان هو يبدى مزيد ارتياحه إلى ؛ وما كنت أنا مرتاحاً إلى نفسى ، لأننى كنت كلما توغلت فى هذه الحياة تتزايد همومى ، فما طال بى الأمر حتى بدأ هذا العالم الذى حسبته لأول وهلة واسع الارجاء يضيق بى فى كل خطوة ، فكنت كلما لامست شبحا من اشباحه يضمحل ويتوارى أمامى

وكان ديجنه يستفسرنى عن حالى فأقول له : وأنت مالك أيها الصديق ؟ لعلك تتذكر قريباً بارحك الى القبور ، أم إن فى صـدرك جراحاً نكأتها رطوبة الشتاء ؟

وكنت أراه أحياناً يتظاهر بعدم سماع ما أقوله ، فكنا نهرع الى الموائد ونشرب حتى نفقد الشعور ، أو نستأجر فرسين وننطلق الى الحقول قاطعين عشر مراحل لنتناول طعامنا هنالك ثم نعود لنستحم ، ثم نتناول العشاء ، ثم نتراكض الى موائد القمار ثم ننسحب الى أسرتنا . وما كنت أصل الى سريرى وأوصد الباب على حتى انطرح جاثياً أذرف الدموع ، وتلك كانت صلاتى فى كل مساء

ومن غرائب حالتى أننى كنت أشعر بشىء من الغرور عند ما كنت أتمكن من الظهور على

غير الحقيقة التي أعهدها في نفسي . فكنت أباهي بالاغراق في وصف شروري وأجدلني شاذة يشوبها الحزن العميق ؛ وما كنت أشعر إلا بالملال عند ما كنت أسرد حوادثي على حقيقتها ؛ وما أدرى كيف أصف هذه اللذة التي كنت أستغرق فيها عندما كنت أقص وقائع جنون وفحشاء لا حقيقة لها

وما كنت أتألم لشيء تألمي لاضطراري الى ارتياد الأماكن التي كنت أرافق خليلتي إليها فيما مضى ، فكنت أظهر كالمعتوه أمام رفاقي وأذهب الى مكان منفرد لأحدق في أصول الأشجار ونبات الأرض ؛ حتى إذا ملأت تأملي ضربتها برجلي وحاولت تحطيمها . ثم أعود الى حيث أتيت وأنا أتمتم قولى المألوف : « إن الله لا يحبني » وكانت تنتهى هذه النوب بي الى سكوت يطول مدى ساعات

واحتلت دماغي فكرة ملكت جوانبي وهي أن لا حقيقة إلا في العرى ، فكنت أقول إن العالم يسمي أصباغه وأدهانه فضيلة ، ويدعو سبحته ديناً ، وأثوابه أدباً ولياقة ، وما الشرف والأخلاق إلا خادمات لقضاء حاجته . فالعالم لا يشرب خمرته إلا من دموع المساكين الذين يؤمنون به . فهو يمشى مطرقاً ما دامت الشمس تتكبد السماء فيذهب الى الكنائس والمراقص والمجتمعات ، وعند ما ينسدل ستر الظلام يتعرى فتراه مومساً لها من التيس رجلاه

ولكنني كنت أحتقر نفسي بهذا القول إذ كنت أشعر أن تحت هذا الجسد الذي تستره الأثواب هيكلا من عظام فكنت أرتمش وأسأل نفسي ما إذا كان هذا كل الوجود

وكنت أعود الى المدينة فأصادف في طريقي فتاة تمسك بيد أمها وتسير معها فأتبعها بأنظاري متنهدا وأشعر أنني رجعت الى الأيام التي كنت فيها طفلا

وبالرغم من أنني كنت أتبع دقة النظام الذي قررته أنا وأصدقائي في حياتنا المشوشة ، فانني ما كنت أهمل الذهاب الى بعض المجتمعات العائلية غير أنني كنت أشعر باضطراب شديد عند ما كنت أنظر الى أية سيدة ، فما كنت ألمس أيدى النساء إلا مرتعشا بعد أن صممت على هجر الحب الى الأبد

ومع هذا فانني رجعت ليلة من أحد المراقص وفي قلبي من الألم ما أشعرني بعودة الحب اليه ، لأنني كنت جلست الى المائدة بقرب سيدة لها من الجمال والأدب الجم ما لا قبل لي بنسيانه . وعند ما أغمضت عيني لأنام انتصب خيالها أمامي فحسبتني مقضياً عليّ بالهلاك ؛ ولذلك صممت على أن أجتنب أية فرصة تمكنني من الاجتماع بها . وبقيت أغالب نفسي خمسة عشر يوما ما بارحت فيها مقعدي ، فكنت أنطرح عليه ساهياً فتمر في مخيلتي جميع حركات هذه المرأة وكلماتها

وما طال الأمر حتى ذاع صيتي في باريس حيث يترصد الناس لسكنات الناس وحركاتهم بأنني سيد الحلماء . وكان ذكاء العالم في هذا مدعاة لاعجابي به ، لأنني بعد أن كنت في عينه أشد الناس حماقة عند ما وقعت لي حادثة خليلتي أصبحت الآن الرجل المتصلب الذي يتحكم في شعوره . وذهب البعض الى القول بأنني ما كنت عاشقا لهذه المرأة بل كنت ألعب دوري بمهارة ، فكان ذلك خير ثناء يوجهه هؤلاء الناس إليّ

والأنكى من هذا أنني أصبحت أنا نفسي أنتفخ غرورا بهذا الشرف المسكين وأتلذذ بغروري

وكنت موجهاً كل جهدى الى أن يرانى الناس واصلا الى مقام من تحجرت عواطفهم فى حين أننى كنت أشتغل بالشهوات وتذهب تخيلاتى الجامحة بى كل مذهب

بدأت أعلن أن ليس المرأة أقل شأن فى نظرى ؛ وكنت أبذل الجهد لخلق أوهام أعلنها للناس وأقول إننى أفضلها على الحقائق فكأننى لم أكن أرى لذة إلا فى تشويه ذاتى ، وكان يكفينى أن تلوح لى فكرة تصدم الرأى العام لأتطوع للدفاع عنها مهما كلفنى الأمر

وهكذا بليت بأعظم النقائص والعيوب : بليت بتقليد كل ما كان يستوقف انتباهى لا لجهله بل لغرابته ؛ ومع أننى لم أكن أرضى أن أظهر فى مظهر المقلد كنت أندفع الى المغالاة لأثبت أننى مبتدع لا تابع ، فلم أكن أرى شيئاً حسناً حتى ولا مقبولا ، وأبدى عجبى ممن يفقدون رزانتهم فى إعجابهم ، ومع ذلك لم أكن أتورع فى حماستى عند ما كنت أدافع عن نظرية أريد أن آخذ بها ، فكنت اندفع فى بيانى حتى تضيق اللغة عن امدادى بالتعابير اللازمة لأبداء إعجابى ؛ وكان يكفى أن يسلم أخصامى بما أرى اليه لأفقد كل فصاحة وكل حماسة

وما كانت هذه الحالة الفكرية إلا نتيجة ملازمة لحياتى التى كرهتها وما قدرت على تبديل خطتى فيها . فكنت أعذب تفكيرى كأننى أنتقم منه واتخذ كل وجهة طلبا للتهرب من نفسى

ولكن بينما كان غرورى يداعب ذاته على هذه الوتيرة كان فؤادى يتقلب على أوجاعه ، فكأننى كنت أنطوى على رجلين أحدهما ضاحك والآخر باك ؛ وكان الصراع مستمراً بين دماغى وقلبى ، فكان مزاحى يدفعنى الى الحزن المفرط كما كان حزنى يثير مزاحى فاستغرق فى ضحكى

وسمعت ذات يوم رجلاً يتبجح بأنه لا يعتقد بأية خرافة وأنه يسخر بكل تفاؤل وكل تشاؤم فجاء أصحابه الى غرفته ومددوا على فراشه هيكل رمة بشرية وكمنوا فى غرفة مجاورة ؛ ودخل الرجل الى غرفته فى ساعة متأخرة فلم يسمع الكامنون أية حركة حتى الصباح ، إذ شاهدوا صديقهم جالسا على فراشه وهو يلعب بالعظام . وكان الرجل قد جن

وقد كان فى داخلى شىء يشبه هذا الرجل يلعب بعظام رمة محبوبة ، وماتلك الرمة إلا انقاض غرامى ، وهى كل ما تبقى لى من سالف أيامى

(يتبع) فليكس فارس

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ

ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش

الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس